الجزء ١٠ المجلد ٩

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) ايلول : سنة ١٩٢٩ م الموافق للربيعين سنة ١٣٤٨ هـ

عبد الحميد الكاتب

- ٢ -

رسالته في نصيحة ولي العهد في الفصل الذي عقدناه في نشأة عبد الحميد الاكبر وعصره وكتابته وأسلوبه عرضنا للاستشهاد ببعض رسائله الصغيرة المأثورة . وهانحن اولاء نتوخى هنا تحليل أدبه من رسالتين كبيرتين مما أبقت الايام عليه واغتبطنا بعد اثني عشر قرناً ان نتعرف منه سعة مادة الكاتب العظيم وطول نفسه وبعد مراميه في الثقافة وانه رجل متنابع[1] العلم آخذ من كل فن بنصيب وافر . والرسالتان هما رسالته في نصيحة ولي العهد ورسالته الى الكتاب . والاولى منهما أطول رسالة ابقت عليها الايام من انشاء سيد الكتاب عبد الحميد الاكبر كتبها على لسان مروان الى ابنه وولي عهده عبد الله بن مروان ، لما وجهه الى قتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي وكان هذا استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٧ . وقد انطوت هذه الرسالة المرقصة على أغراض كثيرة يمكن اجمالها في موضوعين معممين الاول درس عظيم في تربية ابناء الملوك والعظماء وتلقينهم الأخلاق الفاضلة وهي الضمان الاعظم لقيام الممالك . والثاني وضع خطط حربية يسير عليها ولي العهد في قتال العدو مانرى المحدثين في المحاربين بلغوا اكثر منها في باب الكر والفر . فأثبت عبدالحميد بهذه الرسالة انه من علماء التربية والاخلاق وعلماء النفس

(١) يقال رجل متنابع العلم اذا كان يشبه علمه بعضه بعضاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانه من علماء السياسة والادارة والحرب يستطيع ان يقود الجيوش بعقله كما يقود الممالك بقلمه .

بدأ رسالته في وصف الخارجي وان الخليفة أراد ان يعهد الى ولي عهده عهداً يحمله فيه أدبه و يشرع له عظته وان كان ولي العهد في الغاية من الدين والتحلي بما يحسن بالخلافة ولو لم يكن كذلك ماخصه ابوه بالولاية عنه دون بني ابيه . وقال له ان الخليفة بوعظه ابنه ايضاً ائتمر بامر الله وما تقدمت فيه الحكماء من تقديم العظة والتذكير وان كانوا أهل معرفة واولي سابقة في الكمال وفضل في العلم قال : ولو كان المؤدبون اخذوا العلم من عند انفسهم ولقنوه إلهاماً من تلقائهم ولم يتعلموا شيئاً من عند غيرهم لتخيلناهم علم الغيب ووضعناهم بمنزلة قصرهم بهما عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته في الاهيته ... واستعماله ألفاظ الوحدانية والفردانية والالاهية من استعمال المحدثين لا عهد بها للعرب .

قال : وامير المؤمنين يرجو ان ينزهك الله عن كل قبح يهش له طمع ، وان يعصمك من كل مكروه حاق باحد ، وان يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين او خلق وان يبلغه فيك احسن مالم يزل يعوّده من آثار نعمة الله عليك سامية بك الى ذروة الشرف ومنهجة لك بسطة الكرم لائحة بك في ازهر معالي الادب مورثة لك انفس ذخائر العز . وبعد ان كان الخليفة يخاطب ابنه بصيغة الغائب انقلب وخاطبه خطاب الحاضر فقال : (والله استخلف عليك واسأله حياطتك وان يعصمك من زيغ الهوى و يحضرك دواعي التوفيق معاناً على الارشاد فيه فانه لا يعين على الخير ولا يوفق له الا هو) . وهذا الانقلاب في تنويع الخطاب من اجمل ما يبدر على أسلات اقلام الكتاب . ذلك ان الخليفة بعد ان خاطب ابنه خطابه عاملاً من عماله عاد فذكر البنوة فدعا له دعاء والد لولده ليوفق في مقاصده و يسلم في بدنه .

ثم هوّن عليه الامر وابان له قدر نفسه وما تيسر له من اسباب التفوق باخلاقه فقال : وقد تلقتك اخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها من غير تعب البحث في ادراكها ولا متطاول المنال لذروتها بل تأثلت [1] منها اكرم معانيها واستخلصت منها اعتق

(١) تأثلت اكتسبت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جواهرها ثم شمرت الى لباب مصاصها واحرزت مَنْفَسَ[١] ذخائرها فاقتعد ما احرزت ونافس فيما اصبت .

ومما قدمه له من العظة في ذلك ان يشكر الله في كل صباح على نعمة السلامة والعافية وان يقرأ فيه من كتاب الله جزءاً يردد فيه رأيه في ادبه ويزين لفظه بقراءته ويحضر عقله ناظراً في محكمه ويتفهمه متفكراً في متشابهه . يريد بذلك تقوية عقيدته في الدين وتقوية ملكته في البلاغة .

وبعد ذلك التفت فقال : « ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك فانه مغلاق[٢] الحسنات ومفتاح السيئات واعلم ان كل اهوائك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك لانها خدع ابليس وحبائل مكره ومصايد مكيدته فاحذرها مجانباً لها وتوقها محترساً منها واستعذ بالله من شرها وجاهدها اذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه وحزم نافذ لا مثنوية[٣] لرأيك بعد اصداره عليك وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه ومضاءة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة[٤] شك فيها فان ذلك ظهريٌ[٥] صدق لك على ردها عنك وقطعها دون ما تتطلع اليه منك وهي واقية لك سخطة ربك داعية لك رضا العامة ساترة عليك عيب من دونك .... فحاول بلوغ غايتها محرزاً لها بسبق الطلب الى اصابة الموضع محصناً اعمالك من العجب فانه رأس الهوى واول الغواية ومقاد الهلكة حارساً اخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي العادات » .

« ومنها ان تملك امورك بالقصد وتصون سرك بالكتمان وتداوي جندك بالانصاف وتذلل نفسك بالعدل وتحصن عيوبك بتقويم أودك وأناتك فوقها الملال وفوت العمل ومضاءتك فدرّعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتياد الراحة وصمتك فانف عنه عيّ اللفظ وخف فيه سوء القالة[٦] واستماعك فارعه[٧] حسن التفهم وقوّه باشهاد الفكر وعطاءك فانهد[٨] له ببيوتات الشرف وذوي الحسب

(١) منفس ماينتافس فيه . (٢) المغلاق بكسر الميم مايغلق به الباب . (٣) مثنوية استثناء . (٤) خلجة اضطراب . (٥) ظهريّ عدة . (٦) القالة يطلق القول في الخير والقال والقيل والقالة في الشر . (٧) اسمعه . (٨) نهد المدية عظمها وأضخمها .

شبكة الألوكة هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة www.alukah.net

وتحرز فيه من السرف واستطالة البذخ وامتنان الصنيعة ، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر ، وحلمك فزعه عن التهاون ، واحضره قوة الشكيمة [١] ، وعقوبتك فقصر بها عن الافراط ، وتعمد بها اهل الاستحقاق ، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق ، وخذ به واجب المفترض ، وأتم به أود الدين ، واستئناسك فامنع منه البذاءة وسوء المثافنة [٢] ، وتعهدك امورك فحده اوقاتاً ، وقدره ساعات ، لا يستفرغ قوتك ، ويستدعي سآمتك ، وعزماتك فانف عنها عجلة الرأي ، ولجاجة الاقدام ، وفرحاتك فاشكمها [٣] عن البطر ، وقيدها عن الزهد ، وروعاتك فحطها من دهش الرأي ، واستسلام الخضوع ، وحذراتك فامنعها عن الجبن واعمد بها للحزم ، ورجاءك فقيده بخوف الفائت ، وامنعه من أمن الطلب) .

ثم ذكر له كيف يتخير عشراءه ويعامل مشاوريه ، ويتوقى انتشار اخباره في العامة ، الا على صورة لا تسقط من شأنه فقال : « ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلوانك ، ودخلاؤك في سرك ، اهل الفقه والورع من خاصة اهل بيتك وعامة قوادك ، ممن قدحنكته السن بتصاريف الامور ، وخبطته فصالها بين فراسن [٤] البزل منها ، وقلبته الامور في فنونها ، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الامور ، ومواضع الرأي ، مأمون النصيحة ، مطوي الضمير على الطاعة ، ثم احضرهم من نفسك وقاراً ، تستدعي منهم لك الهيبة ، واستئناساً يعطف اليك منهم بالمودة ، وانصاتاً يفل إفاضتهم عندك بما تكره ان ينتشر عنك من سخافة الرأي ، وضياع الحزم ، ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي ، ويقطعك دون الفكر . وتعلم انك وان خلوت بسر فالقيت دونه سترك ، وأغلقت عليه أبوابك ، فذلك لامحالة مكشوف للعسامة ، ظاهر عنك وان استترت بربما ولعل ، وما أرى اذاعة ذلك ، فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن ، فتقدم

(١) الشكيمة قوة القلب . (٢) المثافنة المباطنة وفي رواية المنافثة ومعناها الاذية .

(٣) يقال فعل فلان امراً فشكمته اي أثبته . (٤) الفِرْسن والجمع فراسن رجل الجمل والبزل كركم جمع بازل وهو البعير اذا ظهر نابه ومن المجاز الرجل الكامل في تجربته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في إحكام ذلك من نفسك وسد خلله عنك ، فانه ليس احد أسرع اليه سوء القالة ، ولغط العامة بخير او شر ، ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت فيه من دين الله ، والامل المرجو المنتظر فيك » .

ثم حذره من مسائل لها مساس عظيم بمن لهم السلطان على الناس ، فكلمه في مسائل عامة تنتظم بسيره و بسيرته فقال له : «وإياك ان يغمز[1] احد من حاشيتك وبطانة خدمك ، بضعفة يجد بها مساغاً الى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ، ولا تخلو من لأحدوثة لائمته ، ولا تأمن سوء فيه ، ولا يرخص سوء القالة فيه ، ان نجم ظاهراً ، او أعلن بادياً ، ولن يجترئوا على تلك عندك ، الا ان يروا منك إصغاءً اليها ، وقبولاً لها ، وترخيصاً لهم في الإفاضة بها ، ثم اياك ان يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات ، والمزاح والمضاحك ، التي يستخف بها اهل البطالة ، و يتسرع نحوها ذوو الجهالة ، و يجد فيها اهل الحسد مقالاً لعيب يذيعونه ، ولطعن في حق يجحدونه ، مع ما في ذلك من نقص الرأي ودرن العرض ، وهدم الشرف وتأثيل الغفلة ، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم ، كمون النار في الحجر الصلد ، فاذا قدح لاح شرره ، وتلهب وميضه ووقد تضرمه ، وليست في احد أقوى سطوة ، وأظهر توقداً وأعلى كموناً ، وامسرع اليه بالعيب ، ونطرق الشين ، منها الى من كان في سنك من أغفال الرجال ، وذوي العنفوان في الحداثة الذين لم يقع عليهم سمات الامور ناطقاً عليهم لائحها ، ظاهراً عليهم وسمها ، ولم تمحضهم شهامتها ، مظهرة للعامة فضلهم ، مذيعة حسن الذكر عنهم ، ولم يبلغ بهم الصيت في الحنكة مستمعاً يدفعون به عن انفسهم نواطق السن اهل البغي ، ومواد ابصار اهل الحسد » .

وعاد بعد ان حذره من الخفة في المواكب ، ومداعبة من يسايره بالتضاحك اليه ، يريده على ان يستعمل الجد في حركاته ، بحيث لا تنقلقل جوارحه و يحذره من السعاية و يدله على الطريقة في معاملة النامين وعلى الترفع عن الجواسيس وصورة معاملتهم للاخذ منهم ماينفع مصلحة الدولة فقط ونهج له السبيل السوي في معاملة اصحاب الحاجات

(١) اغمز في فلان اذا عابه واستضعفه وصغر شأنه . والحامة القرابة والأسرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال : « واعلم ان قوماً سيسرعون اليك بالسعاية و يأتونك من قبيل النصيحة ، ويستميلونك باظهار الشفقة و يستدعونك بالاغراء والشبهة و يوطئونك عشوة [1] الحيرة ليجعلوك ذريعة لهم الى استئكال [2] العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة او اسرعوا بك في امره الى الظنة فلا يصلن الى مشافهتك ساع بشبهة ولا معروف بتهمة ولا منسوب الى بدعة فيعرضك لابتداع [3] في دينك و يحملك على رعيتك ما لا حقيقة فيه ويلحمك اعراض قوم لا علم لك بدخلهم الا بما أقدم به عليهم ساعياً واظهر لك منهم منصحاً .

« وليكن صاحب شُرَطك ومن أحببت ان يتولى ذلك من قوادك اليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لاولئك والمستمع لاقاويلهم والفاحص عن نصائحك ثم ليُنْهِ ذلك اليك على ما يرتفع اليه منه لتأمره بامرك فيه وتقفه على رأيك من غير ان يظهر ذلك للعامة فان كان صواباً نالتك حظوته وان كان خطأ أقدم به عليك جاهل او فرطةً سعى بها كاذب فنالت الساعي منها او المظلوم عقوبة او بدر من واليك اليه عقوبة ونكال لم يعصِب ذلك الخطأ بك ولم تنسب الى تفريط وخلوت من موضع الذم فيه محضراً اليه ذهنك وصواب رأيك وتقدم الى من تولي ذلك الامر وتعتمد عليه فيه ان لا يقدم على شيء ناظراً فيه ولا يحاول اخذ احد طارقاً له ولا يعاقب احداً منكلاً به ولا يخلي سبيل احد صافحاً عنه لاصحار [4] براءته وصحة طريقته حتى يرفع اليك امره و ينهي اليك قضيته على جهة الصدق ومنحى الحق و يتقين الخبر فان رأيت عليه سبيلاً لحبس او مجازاً لعقوبة امرته بتولي ذلك من غير ادخاله عليك ولا مشافهة لك منه فكان المتولي لذلك ولم يجر على يديك مكروه رأي ولا غلظة عقوبة وان وجدت الى العفو عنه سبيلاً اوكان مما قُرِف به خلياً كنت انت المتولي للانعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه باطلاق أمره فتوليت اجر ذلك واستحققت ذُخره وانطقت لسانه بشكرك وطوقت قومه حمدك واوجبت عليه حقك فقرنت

---

(١) العشوة الظلمة . (٢) استأكل الضعفاء اخذ اموالهم . (٣) في رواية لا يتاغ دينك . يقال اوتغه اهلكه وهذا مما يوتغ الدين والمروءة . (٤) الاصحار الوضوح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بين خصلتين واحرزت خطوتين ثواب الله في الآخرة ومحمود الذكر في العاجلة .

« ثم واياك ان يصل اليك احد من جندك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك او حاجة يبدهك بطلبها حتى يرفعها قبل ذلك الى كاتبك الذي اهدفته لذلك ونصبته له فيعرضها عليك منهياً لها على جهة الصدق عنها وتكون على معرفة من قدرها فان أردت اسعافه بها ونجاح ما سأل منها أذنت له في طلبها باسطاً له كنفك مقبلاً عليه بوجهك مع ظهور مسرورك بما سألك فسحة رأي وبسطة ذرع وطيب نفس وان كرهت قضاء حاجته وأحببت رده عن طلبته وثقل عليك اجابته اليها واسعافه بها امرت كاتبك فصفحه عنها ومنعه من مواجهتك بها فخفت عليك في ذلك المؤنة وحسن لك الذكر ولم ينشر عنك تجهم الرد وينلك سوء القالة في المنع وحمل على كاتبك في ذلك لائمة انت منها بريء الساحة .

« وكذلك فليكن رأيك وامرك فيمن طرأ عليك من الوفود ، واتاك من الرسل ، فلا يصلن اليك احد منهم الا بعد وصول علمه اليك ، وعلم ما قدم له عليك ، وجهة ما هو مكلمك به ، وقدر ما هو سائلك اياه ، اذا وصل اليك فاصدرت رأيك في حوائجه ، وأجلت فكرك في امره ، واخترت معتزماً على ارادتك في جوابه ، وانفذت مصدور رويتك في مرجوع مسألته ، قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله اليك ، فرفعت عنك مؤونة البديهة ، وارخيت عن نفسك خناق الروية ، واقدمت على رد جوابه بعد النظر ، واجالة الفكر فيه ، فان دخل اليك احد منهم فكلمك بخلاف ما انهى الى كاتبك ، وطوى عنه حاجته قبلك ؛ دفعته عنك دفعاً جميلاً ، ومنعته جوابك منعاً وديعاً ، ثم امرت حاجبك باظهار الجفوة له ، والغلظة عليه ، ومنعه من الوصول اليك ، فان ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الاسباب ، صارفاً عنك مؤونتها ، مسهلاً عليك مستصعبها) .

هذه هي الخطة التي اختطها عبد الحميد لولي عهد المسلمين ، يريد بها ان يرفع مقامه بين الناس ، على اختلاف مطالبهم ، وان يظهره بمظهر الكرامة بعيداً عن تجبيه قاصديه والتجهم لهم ، وهو ضرب من حسن الادارة والسياسة ما نخال رجال الدول الراقية اليوم يعملون بغير هذه الطريقة حتى لا يسقطوا من الانظار ويتركوا للراجعين فسحة من الامل ، ولا يقطعوا معهم قطعاً بتاً ، وان يستهدف صغار العمال للنقد وافظع من النقد ، والرئيس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من ذلك بعزل ، على حين هو الكل في الكل ، والصغير عن رأيه صدر ، ولارادته نفذ ولقانونه طبق . وماذا يضير هذا لو حمل الناس عليه بالطعن وقد يفادى بالمئات من العمال لقيام الدولة وحفظ البيضة واستبقاء الكرامة والحظوة في الرفع من مكانة الرئيس الاول فان بسقوطه سقوط الدولة وسقوط بعض عماله لا شأن له ولا بال . وحقيقة فان من المسائل ما يوفق لكشفه صاحب الشرطة مثلاً اكثر مما يوفق العظيم في الدولة لانه متمحض لذلك ومقام ولاية العهد يصغر في نفوس الامة اذا عمل في جزئيات الامور عملاً قد يجيده العامل الصغير ويوفق فيه ويوفر على صاحبه وقته ويرفع في العيون شخصيته .

جوّد عبدالحميد الكلام على هذا فأبان عن بعد نظر في سياسة الملك وسياسة الرعية ثم انشأ ينهج للمكتوب اليه طريقاً مهيعاً في سلوكه مع جلسائه وبطانته واهل مشورته واعوانه وفي احوال نفسه . تالله لقد لقنه هنا ادباً ، وحدد له عادات ليست اليوم قواعد الحياة العامة في الممالك المتمدنة ارقى منها . وفي هذا دليل ناهض على ان العقل البشري على كثرة ارتقائه جيلاً فجيلا ان يبرح في دائرة نرى فيها ما كان يستحسن قبل الف سنة يستحسن اليوم وتلك القواعد التي يتمسكون بها هي القواعد التي سنها أجدادنا لانفسهم منذ ثلاثة عشر قرناً . قال عبد الحميد :

« احذر تضييع رأيك ، واهمالك أدبك ، في مسالك الرضا والغضب ، واعتوارهما إياك ، فلا يزدَهِيَنَّك إفراط عجب تستخفك روائعه ويستهويك منظره ولا يبدرن منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه ان حل بك او حادث ان طرأ عليك .... وامنع اهل بطانتك وخاصة خدمك من استلحام اعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب اليك بالسعاية والاغراء من بعض ببعض او النميمة اليك بشيء من احوالهم المستترة عنك او التحميل لك على احد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة فان ذلك أبلغ بك سموا الى منالة الشرف واعون لك على محمود الذكر وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

« واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق[1] وعن القطوب باظهار

(١) الاتساع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الغضب ونحله فان ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل وخروج من انتحال اسم الفضل وليكن ضحكك تبسماً او كشراً في احايين ذلك واوقاته وعند كل رائع مطرب وقطوبك اطراقاً في مواضع ذلك واحواله بلا عجلة الى السطوة ولا اسراع الى الطيرة ، دون ان يكتنفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل .

« اذا كنت في مجلس ملئك ، حيث حضور العامة مجلسك ، فاياك والرمي بنظرك الى خاص من قوادك ، اوذي أثرة عندك من حشمك ، وليكن نظرك مقسوماً في الجميع واراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالمحدث ، ثم لا يبرح وجهك الى بعض حرسك وقوادك متوجهاً بنظر ركين ، وتفقد محض وان وجه اليك احد منهم نظره محدقاً ، او رماك ببصره ملحاً ، فاخفض عنه اطرافاً جميلاً باتداع وسكون ، واياك والتسرع في الاطراق ، والخفة في تصريف النظر ، والالحاح على من قصد اليك في مخاطبته اياك رامقاً بنظره .

« واعلم ان تصفحك وجوه جلسائك ، وتفقدك مجانسة قوادك ، من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وانتباه السنة فتفقد ذلك عارفاً بمن حضرك وغاب عنك ، عالماً بمواضعهم من مجلسك ، ثم أعدُ بهم عن ذلك سائلاً لهم عن اشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك ، وعاقتهم بالتخلف عنك .

« ان كان احد من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير ، وتعرف منه لين طاعة ، وتشرف منه على صحة رأي ، وتأمنه على مشورتك ، فإياك والاقبال عليه ، في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، ان تريه او احداً من اهل مجلسك ان بك حاجة اليه موحشة ، او ان ليس بك عنه غنىً في التدبير ، او انك لا تقضي دونه رأياً ، اشراكاً منك له في رويتك ، وادخالاً منك له في مشورتك ، واضطراراً منك الى رأيه في الامر يعروك ، فان ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك ، فانفها عن نفسك ، خائفاً لاعتلاقها ذكرك ، واحجبها عن رويتك قاطعاً اطماع اوليائك عن مثلها عندك ، او غلوبهم عليها منك ، واعلم ان للشورة موضع الخلوة وانفراد النظر ، ولكل امر غاية تحيط بحدوده ، وتجمع معالمه ، فابغها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محرزاً لها ، ورمها طالباً لنيلها ، واياك والقصور عن غايتهـا ، او العجز عن دركها ، او التفريط في طلبها ان شاء الله تعالى .

« اياك والاغرامَ عن حديث ما اعجبك ، او امر ما ازدهاك بكثرة السؤال ، او القطع لحديث من أرادك بحديثه ، حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره ، او المسألة عما ليس منه . فان ذلك عند العامة منسوب الى سوء الفهم ، وقصر الادب ، عن تناول محاسن الامور والمعرفة بمساويها ، ولكن انصت لمحدثك وارعه سمعك ، حتى يعلم ان قد فهمت حديثه ، واحطت معرفة بقوله ، فان اردت اجابته فعن معرفة بحاجته ، وبعد علم بطلبته ، والا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والاغضاء ، فأجزى عنك الجواب ، وقطع عنك السن العتب .

« اياك وان يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، او تضجر ممن حضرك ، وعليك بالتثبت عند سورة الغضب ، وحمية الأنف ، وملال الصبر في الامر تستعجل به ، والعمل تأمر بانفاذه ، فان ذلك سخف شائن ، وخفة مردية ، وجهالة بادية ، وعليك بثبوت المنطق ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام ، والترك لفضوله ، والاغرام بالزيادات في منطقك ، والترديد للفظك ، من نحو اسمع ، وافهم عني و يا هنـاه ، والا ترى ، او ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة باهل العقل ، الشائنة لذوي الحجا في المنطق ، المنسوبة اليهم بالعي ، المردية لهم بالذكر ، وخصال من معـايب الملوك ، والسوقة عنها غبية النظر ، الا من عرفهـا من اهل الأدب ، وقلما حامل لها ، مضطلع بها ، صابر على ثقلها آخذ لنفسه بجوامعها فانفها عن نفسك بالتحفظ منها واملك عليها اعتيادك اياها معتنياً بهـا منهـا كثرة النخم والتبصق والنخع والتؤباء والتمطي والجشاء وتحريك القدم وتنقيض الاصابع والعبث بالوجه واللحية اوالشارب اوالمخصرة او ذؤابة السيف او الايماض بالنظر او الاشارة بالطرف الى بعض خدمك بامر ان أردته او السرار في مجلسك او الاستعجال في طعمك او شربك وليكن طعمك متدعاً وشربك انفاساً وجرعك مصاً واياك والتسرع في الايمان فيما صغر او كبر من الامور والشتيمة بقول يا ابن الهناة او الغميزة لاحد من خاصتك بتسو يفهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك او دلرك وفناؤك فان ذلك كله مما يقبح ذكره و يسوء موقع القول فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتحمل عليك معايبه و ينالك شينه و ينتشر عليك سوء النبإ به فاعرف ذلك متوقيًا له واحذره مجانبًا لسوء عاقبته .

« استكثر من فوائد الخير فانها تنشر المحمدة وتقيل العثرة واصبر على كظم الغيظ فانه يورث الراحة و يؤمن الساحة وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وتبطن احوالهم واستثارة دفائنهم حتى تكون منها على رأي عين و يقين خبرة فتنعش عديمهم وتجبر كسيرهم وتقوّم اودهم وتعلم جاهلهم وتستصلح حاسدهم فان ذلك من فعلك بهم يورثك العزة و يقدمك في الفضل و يبقي لك لسان الصدق في العاقبة و يحرز لك ثواب الآخرة و يرد عليك عواطفهم المستنفرة منك وقلوبهم المنحية عنك .

« قس بين منازل اهل الفضل في الدين والحجا والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة وبين منازل اهل النقص في طبقات الفضل واحواله والخمول عند مباهاة النسب وانظر بصحبة ايهم تنال من مودته الجميل وتستجمع لك اقاويل العامة على التفضيل وتبلغ درجة الشرف في احوالك المتصرفة بك فاعتمد عليهم من خلالهم في امرك وآثرهم بمجالستك لهم مستحقًا منهم واياك وتضييعهم مفرطا واهمالهم مضيعا » .

هنا انتهى الفصل الاول من هذه الرسالة المتناهية في الإبداع وقد لمحنا فيها مايهذب النفس و يعرفها مصادر الامور ومواردها و يقفها على احوال الناس ومعالجة مسائلهم وقد ختمه بقوله : هذه جوامع خصال قد لخصها لك امير المؤمنين مفسراً وجمع لك شواذها مؤلفاً واهداها اليك مرشداً فقف عند اوامرها وانته عن زواجرها وتثبت في مجامعها وخذ بوثائق عراها تسلم من معاطب الردى وتنل النفس الحظوظ ورغيب الشرف واعلى درجات الذكر والله يسأل لك امير المؤمنين حسن الارشاد وتتابع المزيد وبلوغ الامل وان يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوغك اياها وعافية يحلك اكنافها ونعمة يلهمك شكرها فانه الموفق للخير والمعين على الارشاد و به تمام الصالحات وهو مؤتي الحسنات وبيده الملك وهو على كل شيء قدير » .

قرأنا في الجزء الاول من هذا الكتاب صورة من التربية التي يريد عبدالحميد الاكبر ان يلقنها ولي عهد المسلمين ، ومما يحاول ان ينزه عنه خلقه وعاده ، ومجالسه وموافقه ، ويلقنه من السيرة الحسنة مع رعيته وذوي الحاجات والظلامات منها ، ومايجب ان يكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليه في ادارته وسياسته مع عماله ونصحائه واصحاب اخباره ، على صورة يظهر معها تام الادوات ، جميل المآتي والصفات ، عظيماً يضم في برديه ضروب الوقار وحسن السمت ، وجمال العلم والادب .

اما الجزء الثاني من الكتاب فهو قانون الحرب يلخصه لقائدها ، فيعمل على نفاذه لتكتب له الغلبة على خصمه الخارج على دولته . وقد بدأ هذا القسم بالوقوف عند حدود الطاعة لله ، والعمل بمراشده ، واجتناب نواهيه ، ووصف الدواعي الى جهاد العدو الذي خرج على الجماعة فكان اضر على المسلمين من الترك والمشركين واوصاه برعاية من يمر بهم الجيش من اهل الذمة واهل الملة لئلا ينال الرعية ما ينالها على الاغلب من كل جيش مرابط ومثاغر ومهاجم ومدافع ومتراجع . فقال هذا :

فاذا افضيت نحو عدوك واعتزمت على لقائهم واخذت أهبة قتالهم فاجعل دعامتك التي تلجأ اليها وثقتك التي تأمل النجاة بها وركنك الذي ترتجي به منازل الظفر وتكتهف[1] به لمخالق الحذر تقوى الله عز وجل مستشعراً لها بمراقبته والاعتصام بطاعته متبعاً لامره مجتنباً لسخطه مجتذباً سننه والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده وتعدي شرائعه متوكلاً عليه فيما صمدت[2] له واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلقاك من عز راغباً فيما اهاب[3] بك اميرالمؤمنين اليه من فضل الجهاد ورمى بك اليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين أكلبهم عليه واظهره عداوة لهم وافدحهم ثقلاً لعامتهم واخذة بربقهم[4] واعلاه عليهم بغياً واظهره فيهم فسقاً وفجوراً واشده على فيئهم الذي اصاره الله لهم مؤنة وكلاً والله المستعان عليهم والمستنصر على جماعتهم عليه يتوكل اميرالمؤمنين واياه يستصرخ عليهم واليه يفوض امره وكفى بالله ولياً وناصراً ومغيثاً وهوالقوي العزيز .

ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرتهم ورد مستعلي جورهم[5] واحكام

---

(١) اكتهف وتكهف لزم الكهف والكهف المغارة والوزر الملجأ . (٢) صمد للامر قصده معتمداً عليه . (٣) اهاب بصاحبه دعاه . (٤) الربقة حبل يوضع في العنق وجمعه ربق . (٥) في الصبح : ورد مشتعل جهلهم واحكام ضياع عملهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خللهم ، وضم منتشر قواصيهم ، ولم شعث أطرافهم ، وتقييدهم عمن مروا به من اهل ذمتك ، وملتك ، بحسن السيرة ، وعفاف الطعمة ، ودعة الوقار ، وهدي الدعة ، وجمام المستجم ، محكماً ذلك منهم ، متفقداً لهم فيه تفقدك اياه من نفسك .

ثم اصمد لعدوك المتسمي بالاسلام ، الخارج عن جماعة اهله ، المنتحل ولاية الدين ، مستحلاً لدماء اوليائه ، طاعناً عليهم ، راغباً عن سنتهم ، مفارقاً لشرائعهم ، يبغيهم الغوائل ، وينصب لهم المكايد ، اضرم حقداً عليهم ، وارصد عداوة لهم ، من الترك وأمم الشرك ، وطواغي الملل ، يدعو الى المعصية والفرقة ، والمروق من الدين الى الفتنة ، مخترعاً بهواه الى الأديان المنتحلة ، والبدع المتفرقة ، خساراً وتخسيراً ، وضلالاً وتضليلاً ، بغير هدى من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت يداه ، وما الله بظلام للعبيد ، وبئسما سولت له نفسه الامارة بالسوء ، والله من ورائه بالمرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .

وقد رأينا بما نقلنا من جملة انه عاد فأراده على الاعتصام بالمولى ، وادلى اليه بالوسائل الى استصلاح عدوه من دون اهراق دم فقال له : « اعلم ان الظفر ظفران احدهما أعم منفعة ، وابلغ في حسن الذكر قالة ، وأحوطه سلامة ، وأتمه عافية ، وأعوده عاقبة ، وأحسنه في الامور مورداً ، وأصحه في الرواية حزماً ، وأسلمه عند العامة مصدراً ، ما نيل ببسالة الجنود ، وحسن الحيلة ، ولطف المكيدة ، ويمن النقيبة [1] ، واستنزال طاعة ذوي الصدوف [2] ، بغير اخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب ، ومنازلة الفرسان في معترك الموت ، وان ساعدتك طلوق الظفر ، ونالتك مزية السعادة في الشرف ، ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب ، وعضاض السيوف ، وألم الجراح ، وقصاص الحروب ومجالها بمعاورة أبطالها ، على انك لا تدري لاي الفريقين يكون الظفر في البديهة ، ومن المغلوب في الدولة ، ولعلك ان تكون المطلوب بالتمحيص ، فحاول ابلغهما في سلامة جندك ورعيتك ، واشهرهما صيتاً في بدو تدبيرك ورأيك ، واجمعهما لإلفة وليك وعدوك ، واعونهما على صلاح رعيتك ، واهل ملتك ، واقواهما شكيمة في حزمك ،

(١) النقيبة النفس . (٢) الميل والانحياز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وابعدهما من وصم عزمك ، واعلقهما بزمام النجاة في آخرتك ، واجزلهما ثواباً عند ربك .

وابدأ بالاعذار[1] الى عدوك ، والدعاء لهم الى مراجعة الطاعة وامر الجماعة ، وعرى الألفة ، آخذاً بالحجة عليهم ، متقدماً بالانذار لهم ، باسطاً امانك لمن لجأ اليه منهم ، داعياً لهم اليه بألين لفظك والطف حيلتك ، متعطفاً برأفتك عليهم ، مترفقاً بهم في دعائك ، مشفقاً عليهم من غلبة الغواية لهم ، واحاطة الهلكة بهم ، منفذاً رسلك اليهم بعد الانذار ، تعدهم كل رغبة يهش اليها طمعهم في موافقة الحق ، و بسط كل امان سألوه لانفسهم ومن معهم ومن تبعهم ، موطناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك ، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك ، قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة ، ومراجعة مسيئهم الى الطاعة ، مرصداً للمنحاز الى فئة المسلمين وجماعتهم ، اجابة الى ما دعوته اليه ، وبصرته اياه من حقك وطاعتك ، بفضل المنزلة واكرام المثوى ، وتشريف الجاه ، وليظهر من اثرك عليه ، واحسانك اليه ، ما يرغب في مثله الصادف عنك ، المصر على خلافك ومعصيتك ، ويدعو الى اعتلاق حبل النجاة ، وما هو املك به في الاعتصام عاجلاً وانجى له من العقاب آجلاً وأحوطه على دينه ومهجته بدءة وعاقبة فان ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم ويعتضد به في تقديمه الحجة اليهم معذراً او منذراً ان شاء الله .

وهنا اورد له الصورة التي يجب ان يتخذها لارسال عيونه وجواسيسه لمعرفة حال العدو وادراك نفسيته وما يرغب فيه « مستشيراً لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم التجربة ونجذتهم الحروب » وان الواجب ان يعظم امر عدوه لا كثر مما بلغه اخذاً بالحزم لئلا يكون غير مهين الجند ولا مفرطاً في الرأي ولا متلهفاً على اضاعة تدبير ووضع له قاعدة ان يحذر جواسيسه انفسهم بما يأتونه به من اخبار عدوه وان لا يعافيهم اذا اتهمهم في خبر حملوه ملتمساً لهم الاعذار ولعلهم أوتوا من تدبير العدو ومكيدته .

وقال :

« البسهم[2] جميعاً على الانتصاح وارجح لهم المطامع فانك لم تستعبدهم بمثله

(١) اعذر بالغ في العذر اي في كونه معذوراً على ما اتاه . (٢) خالطهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعدهم جزالة الثواب في غير ما استنامة منك الى امر عدوك » . « واعلم شأن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك وربما كانوا لك وعليك فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك وكثير مما يصدقونك ويصدقونه فلا يبدرن منك فرطة وعقوبة الى احد منهم ولا تعجل بسوء الظن الى من انهمته على ذلك وابسط من آمالهم فيك من غير ان تُري احداً منهم انك اخذت من قوله اخذ العامل به والمتبع له او عملت على رأيه عمل الصادر عنه او رددته عليه رد المكذب له والمتهم له المستخف بما اتاك منه فتفسد بذلك نصيحته وتستدعي غشه وتجترىء داوته واحذر ان يُعرف جواسيسك في عسكرك او يشار اليهم بالاصابع وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وامين سرك ويكون هو الموجه لهم والمدخل عليك من اردت مشافهته منهم واعلم ان لعدوك في عسكرك عيوناً راصدة وجواسيس كامنة وان رأيه في مكيدتك مثل ما تكايده به وسيحتال لك كاحتيالك له ويعد لك كإعدادك فيما تزاوله منه فاحذر ان يشهر رجل من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه فيعد له المراصد ويحتال له بالمكائد فان ظفر به فأظهر عقوبته كسر ذلك ثقات عيونك وخذلهم عن تطلب الاخبار من معادنها واستقصائها من عيونها واستعذاب اجتنائها من ينابيعها حتى يصيروا الى اخذها مما عرض من غير الثقة ولا المعاينة لقطاً لها بالاخبار الكاذبة والأحاديث المرجفة واحذر ان يعرف بعض عيونك بعضاً فانك لا تأمن تواطئهم عليك ومما لأمتهم عدوك واجتماعهم على غشك وتطابقهم على كذبك واصفاقهم[1] على خيانتك وان يورط بعضهم بعضاً عند عدوك فاحكم امرهم فانهم رأس مكيدتك وقوام تدبيرك وعليهم مدار حربك وهو اول ظفرك » .

وذكر له بعد هذا صفة من يوليه شرطته ، وان يكون اوثق قواده عنده وآمنهم نصيحة ، واقدمهم بصيرة في طاعته ، واصدقهم عفافاً ، وان يبسط من امله مظهراً عنه الرضا ، حامداً منه الابتلاء ، ويبين له مهمته من الجيش وسلطته على الناس . وقال له ان يولي القضاء في عسكره رجلاً من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم

(١) اجتماعهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والوقار والعصمة والورع ممن حنكته السن ، وابدته التجربة ، ويكون ممن لايداهن في القضاء ويعدل ، وان يجري عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه ، ليتفرغ لما حمله ، ويعان على ما ولي ، واشار له ان ينتخب لطلائعه ذوي نجدة وبأس وخبرة ممن صلوا بالحروب ، وشربوا مرار كؤوسها ، وان يتفقدهم على عينه ، ويعرض كراعهم [1] بنفسه ، ويبين له ما يصلح من الخيل والسلاح ووصف ذلك ابدع وصف . وحذره ان يكل مباشرة عرضهم وانتخابهم الى احد من اعوانه وكتابه ، لئلا يضيع مواضع الحزم ويقف دون عزم الروية ، لانهم حصون المسلمين وعيونهم وهم اول مكيدته ، وعروة امره ، وزمام حربه ، وان ينتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت ، مشهور الاسم ، ظاهر الفضل ، له في العدو وقعات وصولات ، وان يجري عليهم وعليه ارزاقاً تسعهم وتمد من اطماعهم سوى ارزاقهم في العامة . وبعد هذا قال له ان يولي درّاجة عسكره واخراج اهله الى مصافهم ومراكزهم رجلاً من اهل بيوتات الشرف محمود الخبرة معروفاً بالنجدة ذا سن وتجربة وان يضم اليه عدة نفر من ثقات جنده وذوي اسنانهم يكونون شرطة معه ثم يتقدم اليه في اخراج المصاف واقامة الاحراس واذكاء العيون وذكر له عمل هذا الرجل في الاخذ بالنافع لقيام امر الجيش ورقايته من العدو .

وذكر له ان يفوض الى امراء اجناده وقواد خيله امور اصحابهم رياضةً منه لهم على السمع والطاعة لامرائهم وحذره ان يعتل احد من قواده عليه بما يحول بينه وبين تأديب جنده لان ذلك مفسدة للجند وحذره استخفاف الجند بقوادهم لان ذلك يؤدي الى استخفافهم بامره وان يوعز الى قواده ان لايقدموا على عقوبة احد الا عقوبة تأديب اما عقوبة القتل او اقامة حد في قطع او افراط في ضرب فلا يلي ذلك الا هو او صاحب شرطته بامره وعن رأيه واذنه .

وبعد ذلك بسط له لقاء العدو اذا شام طلائعه كيف يكتّب خيوله ويعبي جنده ويسير في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة شاهرين الاسلحة ناشرين البنود والاعلام عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم معرفاً كل قائد اصحابه مواقفهم من الميمنة

(١) كراعهم خيلهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، ليكون كأنه عسكر واحد في اجتماعه على العدو ، فان ضلت دابة من موضعها عرف اهل العسكر من اي المراكز هي ومن صاحبها ، وفي اي المحل حلوله منها فردت اليه . واراده على ان يجعل على ساقته أوثق اهل عسكره صرامة ونفاذاً ، ورضاً في العامة ، وانصافاً من نفسه للرعية ، وان يجعل خلف ساقته رجلاً من وجوه قواده جليداً ماضياً عفيفاً صارماً شهم الرأي شديد الحذر غير مداهن في عقوبة ، في خمسين فارساً من خيله ، يحشر اليه جنده ويلحق به من يتخلف عنه ، وامره ان يعد العقوبة الموجعة و يستصفي الأموال و يهدم عقار كل من آوى إحداً من الجند او ستر موضعه او أخفى محله ثم قال :

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً ، لتخف المؤنة بذلك على جندك ، ويعلموا أوان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأي الى إبان الرحيل ، ومتى يكون رحيلك مختلفاً ، تعظم المؤنة عليك وعلى جندك ، ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف ، وينزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إياك ان تظهر استقلالاً ، او تنادي برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تعبيتك بالوقوف باصحابه على معسكرك آخذاً بجنبي فوهته باسلحتهم عدة لامر ان حضر ، او مفاجأة من طليعة للعدو ان رأت منكم نهزة ، او لمحت عندكم غرة ، ثم مر الناس بالرحيل ، وخيلك واقفة ، وأهبتك معدة ، وجنبتك واقية ، حتى اذا استقللتم من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح ، وهدوء حملة ، وحسن دعة ، فاذا انتهيت الى منهل اردت نزوله ، او هممت بالمعسكر به ، فاياك ونزوله الا بعد العلم باهله ، والمعرفة بمرافقه ، ومر صاحب طليعتك ان يعرف لك أحواله ، و يستثير لك علم دفينه ، و يستبطن علم اموره ، ثم ينهيها اليك على ما صارت اليه ، لتعلم كيف احتماله لعسكرك ، و كيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك ان أردت مقاماً به ، او مطاولة عدوك ، او مكايدته فيه ، قوة تحملك ومدد يأتيه ، فانك ان لم تفعل ذلك ، لم تأمن من ان تهجم على منزل يعجزك و يزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع مواده ان أردت بعدوك مكيدة ، او احتجت من امورهم الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مطاولة ، فان ارتحلت منه كنت غرضاً لعدوك ، ولم تجد الى المحاربة والاخطار سبيلاً ، وان اقمت به اقمت على مشقة وحصر ، وفي ازل[1] وضيق ، فاعرف ذلك وتقدم فيه ، فان أردت نزولاً امرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوقفت خيله متنحية من معسكرك ، عدةً لامر ان غالك ، ومفزعاً لبديهة ان راعتك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته فجأة عدوك ، وعرفت موقعها من حرزك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الاثقال مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودباباً محيطين بعسكرك ، وعدة ان احتجت اليها ، ولتكن دبابات جندك اهل جلد وقوة ، قائداً اواثنين او ثلاثة باصحابهم ، في كل ليلة ويوم نوباً بينهم ، فاذا غربت الشمس ووجب[2] نورها أخرج اليهم صاحب تعبيتك أبدالهم ، عسساً بالليل في اقرب من مواضع دبابي النهار يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محاباة لاحد فيه ولا إدهان » .

وعلى هذا النحو وضع لولي عهد المسلمين مخطط الحركات الحربية ثم قال له ان يكون منزله في خندق او حصن ليأمن فيه بيات عدوه ، وان يقطع لكل قائد ذرعاً معلوماً من الارض بقدر اصحابه ، فيحفروه عليهم خندقاً يطيفونه بعد ذلك بخنادق الحسك اي الأسلاك الشائكة . واذا طرقهم طارق او فاجأهم عدو ان لا يتكلم احد رافعاً صوته بالتكبير ، وليشرعوا رماحهم ناشبين بها في وجوههم ، ويرشقونهم بالنبل مكتنين باترستهم ، لازمين لمراكزهم ، وان يكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون ، ليعرف مواضع عدوه من معسكره ، وان لا يشهروا سيفاً يتجالدون به ، بل يكون قتالهم بالرماح والنشاب « قد ألبدوا بالأترسة ، واستجنوا بالبيض ، والقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب الحشو » وأراده على ان لا يخمد نار رواقه ليسكن نافر قلوب عسكره ، وان عدوه اذا نكل عن الاصابة في جنده فعليه ان يتبعه جريدة خيل عليها الثقات من فرسانه . وتقدم اليه فوصف الحالة التي يجب على هؤلاء الثقات ان يكونوا عليها ، وهم يطاردون اعداءهم ، والصفات التي يجب على فرسانه ان يكونوا عليها ليغنوا غناءهم ، ووصف له صورة خيلهم وعددهم وسلاحهم وكيف يولي على كل مائة رجل منهم رجلاً من اهل

(١) الازل ضيق في العيش . (٢) وجبت الشمس غابت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاصته وثقاته ونصحائه « له صبت في الرياسة وقدم في السابقة ، واولية في المتابعة ، وبتعهدهم ودوابهم وسلاحهم ليكونوا كرجل واحد في التشمير وسرعة الاجابة عند الطلب» .

وقال له : ان يوكل بخزائنه ودواوينه رجلاً ناصحاً اميناً و يجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزائنه وحولها ، ويكون عامة الجند والجيش منحيين عنها لئلا تحدث فزعة فينتهب الجند انفسهم الخزانة .

وبعد ان نحا هذا المنحى ختم هذه الرسالة العذراء بان يعمد الى الحيل اولاً لا الى القتال وان يدس الى عدوه ، ويكاتب رؤساءهم وقادتهم ، ويعدهم ويمنيهم ، و يقطع أعنافهم بالمطامع . وقال له : ولا عليك ان تطرح الى بعضهم كتباً كأنها جواب كتب لهم اليك ، وتكتب على السنتهم كتباً اليك تدفعها اليهم ، وتحمل بها صاحبهم عليهم ، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة ، فلعل مكيدتك في ذلك ان يكون فيها افتراق كلمتهم . وأتم الرسالة بما يجب عليه وعلى جيشه من ذكر الله عند المصاولة وان لا يظهر الجند تكبيراً الا في الكرات والحملات ، اما وهم وقوف فان ذلك من الفشل والجبن ، وان يكون في معسكره المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة يحضون الناس على القتال ، و يصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، و يذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم اهلها وسكانها . و كتب هذا الكتاب سنة تسع وعشرين ومائة قبل زوال ملك بني أمية من الشرق بثلاث سنين .

عرفنا كما رأيتم من هذه الرسالة اموراً كثيرة من شؤون تلك الايام ، ونمط حروبها ، والاخلاق الغالبة على اهلها ، ما لا ننعرف بعضه بالرجوع الى الكتب المطولة والاحاديث المنشرة ، ودل بها عبد الحميد الاكبر انه رجل الدولة الاموية ممن قد ينبغ مثلهم اواخر الدول فيكونون لها مسراجاً وهاجاً ، وتطفأ شعلتهم بانطفاء شعلتها .

وعرفنا بهذا القليل من الصفحات التي ابقت عليها العصور من كلام امام المنشئين نفسيته وعقله بما لا تنهض بتعريفه التراجم المطولة التي يكتبها اصحابها فيمن لم يعرفوهم ولم يعاشروهم ، فيترجمون لهم كما يترجمون لغيرهم ، وبعض التراجم اذا ازلت منها جملاً معينة تليق ان تلبس على جسم اكثر الناس وروحهم . وترجمة المرء من كلامه افعل اثراً واصدق قيلاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رسالته الى الكتاب ومن اشهر ما خلفته العصور من رسائل عبد الحميد بن يحيى رسالته الى الكتاب ننقلها عن اقدم مصدر لها وهو كتاب الجهشياري وقد نقلها ابن خلدون في مقدمته الا انه لم تصل اليه برمتها . قال صاحب تاريخ الوزراء وجدت بخط ميمون بن هرون لعبد الحميد كتاباً الى الكتاب اطال فيه الا انه اجاد فلم استجز اسقاط بعضه ، وكتبته جميعه على طوله لان الكاتب لا يستغني عن مثله وهو :

اما بعد حفظكم الله يا اهل هذه الصناعة وحاطكم ووفقكم وارشدكم ، فان الله عزوجل جعل الناس من بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين سوقاً ، وصرّفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ، فجعلكم معشر الكتاب في اشرفها صناعة : اهل الادب والمروءة والحلم والروية ، وذوي الاخطار والهمم ، وسعة الذرع في الافضال والصلة ، بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك امورهم وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، ويجتمع فيئهم وتعمر بلادهم ، يحتاج اليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السني والدني من ولايته ، لا يستغني عنكم منهم احد ، ولا يوجد كاف الا منكم ، فموقعكم منهم موقع اسماعهم التي بها يسمعون ، وابصارهم التي بها يبصرون ، والسنتهم التي بها ينطقون ، وايديهم التي بها يبطشون ، انتم اذا آلت الامور الى موئلها ، وصارت الى محاصلها ، ثقاتهم دون اهليهم واولادهم وقراباتهم ونصحائهم ، فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع سربال النعمة عليكم .

وليس احد من اهل الصناعات كلها احوج الى استخراج خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة . ايها الكتاب ان كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ، الى ان يكون حليماً في موضع الحلم ، فقيهاً في موضع الحكم ، مقداماً في موضع الاقدام ، ومحجماً في موضع الاحجام ، ليناً في موضع اللين ، شديداً في موضع الشدة ، مؤثراً للعفاف والعدل والانصاف ، كتوماً للأسرار ، وفياً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي ويذر ويضع الامور في مواضعها ، قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه فان لم يحكمه شدا منه شدواً يكتفي به ، يكاد يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مايرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر قبل صدره فيعد لكل امر عدته و يهيء لكل امر أهبته فنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والادب وتفقهوا في الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ ، والفرائض ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ، وأجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وايام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمون به بهممكم ، ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فانه قوام كتاب الخراج منكم ، وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها ، ومساوي الامور ومحاقرها ، فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم ، واربؤوا بانفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه اهل الجهالة والدناءة ، واياكم والكبر والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة بغير إحنة ، وتحابوا في الله عزوجل في صناعتكم ، وتواصلوا عليها فانها شيم اهل الفضل والنبل من سلفكم .

وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه ، وواسوه حتى ترجع اليه حاله ، وان اقعد الكبَر احدكم عن مكسبه ، ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته ، وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه ، أحدب وأحوط منه على اخيه وولده فان عرضت في العمل محمدة فليضفها الى صاحبه ، وان عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملال عند تغير الحال ، فان العيب اليكم معشر الكتاب اسرع منه الى المرأة ، وهو لكم اشد منه لها ، فقد علمتم ان الرجل منكم قد يصف الرجل اذا صحبه في بدء امره من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ونصيحته ، وكتمان سره وعفافه وتدبيره ، بما هو حري ان يحققه بفعاله في غير حين الحاجة الى ذلك منه ، فابذلوا وفقكم الله ذلك من انفسكم ، في حال الرخاء والشدة ، والحرمان والمواساة ، والاحسان والاساءة ، والغضب والرضا ، والسراء والضراء ، فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة ، فاذا ولي الرجل منكم وصيّر اليه من امور خلق الله وعباده امر ، فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً ، فان الخلق عباد الله ، وأحبهم اليه أرفقهم بعباده ، ثم ليكن بالحق حاكماً ، وللأشراف مكرماً ومداريا ، وللفيء وفراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ليناً ، وفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استجلاب خراجه واستقصاء حقوقه رفيقاً .

واذا صحب احدكم الرجل فليستشف خلائقه كما يستشف الثوب ليشتريه لنفسه فاذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة واحسن مداراة ورفق فقد عرفتم ان سائس البهيمة اذا كان حاذقاً بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحاً اتقاها من رجلها وان كانت جموحاً لم يهجها اذا ركبها واذا كانت شموساً توقاها من ناحية يدها وان خاف منها عضاضاً توقاها من ناحية رأسها وان كانت حروناً لم يلاحها وتتبع هواها في طريقها وان استمرت عطفها فيسلس لها قيادها . ومن هذا الوصف من سائس البهيمة ورفق سياسته دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وصحبهم .

والكاتب بفضل رأيه وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ومعاملته ان يجاوره و يناظره ، و يفهم عنه و يخاف سطوته ، اولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ، ولا تعرف خطأ ولا صواباً ، الا بقدر ما يصيرها اليه سائسها ، وصاحبها الراكب لها فأدقوا يرحمكم الله النظر واعملوا فيه الروية والفكر ، تأمنوا ممن صحبتموه باذن الله النبوة ، والاستثقال والجفرة ، و يصيروا منكم الى الموافقة وتصيروا منهم الى المواساة والشفقة ان شاء الله .

ولا يجوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره — قدر صناعته فانكم مما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم لا تحتملون في خدمتكم على التقصير وخزان وحفظة لا يحتمل منكم التضييع والتبذير واسعتينوا على عفافكم بالقصد في كل ما عددت عليكم فنعم العون عونكم على صيانة دينكم وحفظ امانتكم وصلاح معاشكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر و يذلان الرقاب ويفضحان اهلها ولا سيما الكتاب وللامور اشباه وبعضها دليل على بعض . فاستدلوا في مؤتنف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة وارجحها حجة و حمدها عاقبة واعلموا ان للتدبير آفة وضداً [1] واقية لا يجتمعان في احد ابداً وهو الوصف الشاغل لصاحبه على

(١) كذا وفي رواية « واعلموا ان للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل الخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انفاذ عمله ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره قصد الكافي في منطقه وليقصد في كلامه وليوجز في ابتدائه وليأخذ بمجامع حجته فان ذلك مصلحة لعقله ومحجة لذهنه ومدفعة للتشاغل من اكثاره وان لم يكن الاكثار عادة ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب او جواب عند الحاجة فلا بأس ولا يدعون الرجل منكم صنع الله تعالى ذكره له في امره وتأييده اياه بتوفيقه الى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه فانه ان ظن منكم ظان او قال قائل ان ذلك الصنع لفضل حيلته واصالة رأيه وحسن تدبيره كان متعرضاً لان يكله الله الى نفسه فيصير منها الى غير كافٍ ولا يقل احد منكم انه آدب واعقل واحمل لعبء التدبير والعمل من اخيه في صناعته فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب القائل ان صاحبه اعقل منه واحمقهما الذي يرى انه اعقل من صاحبه لعجب هذا بنفسه ونبذ ذلك العجب وراء ظهره اذ كان الآفة العظمى من آفات عقله ولكن قد يلزم الرجل ان يعرف فضل نعمة الله عليه من غير عجب برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكابر على اخيه وكفئه ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته.

وانا اقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل « من يلزم الصحة يلزمه العمل » وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وختمته به تولانا الله واياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعادته وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله ».

وبهذا الكتاب ايضاً عرفنا منازع عبد الحميد وادبه. وانه يريد ان يجعل من الكتابة صناعة شريفة تفيد الناس وتفيد الآخذين انفسهم بادبها وان الكتابة تحتاج الى ادوات كثيرة ذكرها مفصلة ولا بد بعد الاضطلاع باعباء ما يلزم لها من العلوم ان يلم الكاتب بكل موضوع ولو الماما خفيفاً ومن احلى ما في رسالته ان يسترشد الصغار منهم بالكبار الذين سبقوهم في هذه الصناعة ويتعهدوهم ويعملوا بمشورتهم فلا عجب بعد هذا ان كانت لعبد الحميد من كتابته مدرسة خاصة ما زال الناس يأخذون منها في العصور التي تلته وقلما حادوا عنها بحال لانها معقولة مقبولة تنفع صاحبها في كل زمن وقد صدرت عن عقل عظيم جداً نجذته التجارب وأيده العلم الغزير والادب النمير.

نعم ألبس عبد الحميد في الثلث الاول من القرن الثاني هذا الانشاء العربي حلة جديدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها المتانة وفيها الرشاقة واكثر ما بدا في تضاعيفها الاطالة في غير ما املال من سجع وترصيع انشاء يسير مع الطبع ومع الطباع التي تواءم اهل الحضارة ممن يفصلون و يتوسعون و يعيدون و يبدون ومقاصدهم تحوم حول التأثير في اذهان السامعين والقارئين · وبلوغ الغاية من تأليف الدول وانتظام الجماعة ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة فيما بلغنا مألوفة في عامة دور الأمويين لان هؤلاء عرب اقحاح وكتابهم على شاكلتهم يحاولون بالايجاز في مكتوباتهم ان يتركوا للقارىء شيئاً من المعاني يفسرها بما يريد ويمنحوه بشيء من الحرية ينطلق فيها على ما يرى فيه المصلحة فيكون لديه المختصرات والتفاصيل من المطولات تفهم بذاتها · ومن المحقق ان عبد الحميد اقتبس هذه الطريقة من الامم المجاورة لا سيما الفرس ممن لم تكن حضارتهم حضارة ابتدائية كالعرب بل فيها المطول المسهب والمتشعب المتعب ولقد احتاج العرب بعد توسعهم في الملك الى تقرير المسائل على جليتها لا يعتورها لبس ولا إشكال ومن مواجب الحضارة الاسهاب ومن دواعي البداوة الاقتضاب · فعبد الحميد اذاً تشبع بروح لدولة وروح حضارتها التي بلغت في ايامه أعلى قممها ورسم ببراعته صورة ما احاط به واقتضاه الحال ولو حاول بعد ان بلغت الامة ما بلغته من درجات التقدم في كل شأن من شؤون المجتمع ان يعود بالكتابة الى ايجازها القديم لما أفاد جديداً ، ولما رجع ذاك الصدى في سلطان دولته ، ولما وصف محيطه حق وصفه · ومن الصعب ان يتعدى المرء حدود البيئة ، ولا عليه فيما اتاه مادامت حال الدولة تتطلب القاء الخطا الى الامام ، وان تجدد اوضاعها على ما تقتضيه المصلحة ، وطبيعة الملك والحضارة ، على ان لا يهدم في عمله اصلاً من الاصول القديمة · وفي هذا كان جماع المكانة التي بلغها عبد الحميد بانشائه فهو مخترع طريقة ، وكاتب وصاف على الحقيقة ، استجمع كل شروط البلاغة فعد امير المنشئين غير مدافع ، واستطاب الناس الى يومنا هذا أسلوبه المعجب المطرب ، واين من يشاكله فيه ، او تسمو قريحته الى مستوى ذاك النابغة في فنون الانشاء ، الداهية في حسن التصرف على ما يشاء ·

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net